

فقه التعبير القرآني

في ضوء مقامات القرب

دكتور / محمود توفيق محمد سعد

تمهيد : -

من المسلم به أن أسلوب القرآن الكريم قد شغل كثيرا من صفوة الخلق ، فأفرغوا وجودهم بغية ادراك شيء من سرائره التي لا تنفذ ، وما تعددت المناهج في دراسة كتاب كما تعددت في دراسة القرآن الكريم . وعلى الرغم من تعددها وسعيها اللحثيث الى التكمال الا أن عجزها لم يكن كما كان أمام أسلوب القرآن الكريم ، مما يؤكد أنه ما أعجز الخلق كافة عن الاتيان بمثله أو سورة منه فحسب ، وانما هو يعجزهم أبدا عن الادراك المحيط بعطائه ، والكاشف عن أسرارهِ . وما حظى المنهج من هذه المناهج باهتمام صفوة العلماء واجتماعهم عليه مثلما حظى المنهج البلاغى القائم على اليقين الوثائق بأن السر السارى في كل عنصر من عناصر القرآن الكريم انما هو بلاغته وبيانه .

وأصحاب هذا المنهج البياني في تدبر القرآن الكريم ليسوا على درجة سواء في تمثل هذا المنهج تمثلا يتلاءم مع عالم الكلمة الالهية المعجزة ، بل ان كثيرا من أصحاب هذا المنهج لا يكادون يفرقون بين وسائل التأمل في الابداع الفنى : شعرا أو نثرا أو غيرهما ، ووسائل تدبر وفقه الكلمة الالهية المعجزة .

بمعنى ان الأسلوب فى عالم الابداع الأدبى يختلف باختلاف صاحبه ، ذلك أن الأسلوب « هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام ، وهذه الطريقة فضلا عن اختلافها فى الكتاب والشعراء تختلف فى الكاتب أو الشاعر نفسه باختلاف الفن الذى يعالجه والموضوع الذى يكتبه ، والشخص الذى يتكلم بلسانه أو يتكلم عنه » (١) .

وقديما أشار الفاقهون الى ذلك ، فعبد القاهر (٤٧١ هـ) رفض وجوها من النظر فى عالم الشعر هى نفسها فى عالم النثر مقبولة عنده ، ذلك أنها فى عالم الشعر تفسده وتخرجه الى شئ مغسول والى كلام عامى مرذول (٢) .

وكذلك أشار البهاء السبكى (٧٧٣ هـ) الى أنه « ربما كان الشئ فصيحاً فى الشعر غير فصيح فى النثر » (٣) . وهى اشارات فاقهة قائمة على أن طبيعة الشعر غير طبيعة النثر وأن من فرق بينهما من حيث الوزن والقافية فحسب كان على ضلال مبين .

اذا كان هذا فى عالم الابداع الأدبى ، فكيف اذا ما كان العالم عالم الكلمة المعجزة ؟ أيستقيم فى عقل أن وسائل التأمل ومنهج فى الكلمة الشاعرة أو فى الابداعات الفنية عامة صالحة وحدها ، وهى هى لتدير وفقه

(١) دفاع عن البلاغة لأحمد حسن الزيات ص ٥٦ . مطبعة الرسالة ١٩٤٥م وينظر النقد الأدبى لسيد قطب ص ٢٠ وما بعدها ، وقضايا النقد الأدبى لزكى العشماوى ص ١ وما بعدها ، والنقد الأدبى الحديث لغنيمى هلال ص ٣٥٦ ونظرية الأدب لاوستن وارن ورينيه ويليك ص ٢٠٥ وما بعدها .

(٢) دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٢٠٧ . تصحيح المراغى
(٣) عروس الأفراح - للبهاء السبكى ج ١ ص ٩٩ «شروح التلخيص»

كلمة الله المعجزة التي نزل بها الروح الأمين على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟

« ان نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتبيان مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم . وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد » (١) شعرا كان أو نثرا ، ذلك أن بلاغة البيان تعلو على قدر علو المبين « فعلوا بيان الله على بيان خلقه بقدر علو الله على خلقه ، فبيان كل مبين على قدر احاطة علمه » (٢) ، ومن ثم كان « للقرآن عرف خاص ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها ، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه ، والمعهود من معانيه ، فإن نسبة معانيه الى المعاني كنسبة الفاظه الى الالفاظ بل أعظم ، فكما أن الالفاظ ملوك الالفاظ وأجلها وأفصحها ، ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي يعجز عنها قدر العالمين ، فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأفخمها ، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به ، بل غيرها أعظم منها وأجل وأفخم » (٣) .

لهذا فإن الناقد قد يكون بصيرا بكل فنون الابداع الأدبي والفني ، وعليما بمناهجه ، ومدركا لأسراره إلا أنه يعجز عجزا بينا عن ملح شيء من سرائر التعبير القرآني ، ذلك أنه « لا يجتمع فهم القرآن والاشتغال بالحطام

(١) اعجاز القرآن للباقلائي ص ٣٥ - تحقيق السيد احمد صمقر - دار المعارف .

(٢) مفتاح الباب المقفل لأبي الحسن الحرالي ق ٣ ب د مخطوط رقم ٥٦٧ تفسير تيمور .

(٣) بدائع الفوائد لابن القيم ٢٧/٣ ، والتفسير القيم لابن القيم ص ٢٦٩ .

فى قلب مؤمن أبدا « (١) و « لا يحصل للناس فهم معانى الوحي حقيقة . ولا تظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة ، وفى قلبه بدعة ، أو اصرار على ذنب ، أو فى قلبه كبر أو هوى أو حب الدنيا ، أو يكون غير متحقق الايمان ، أو ضعيف التحقيق ، واعتمد على تفسير ليس عنده الا علم بظاهر ، أو يكون راجعا الى معقوله ، وهذه كلها حجب وهوانع بعضها أكد من بعض » (٢) .

بل انه « اذا امتلأ القلب بالشغل بالمخلوق والعلوم التى لا تنفع لم يبق فيها موضع للشغل بالله ومعرفة أسمائه وصفاته وأحكامه » . وسر ذلك أن اصفاء القلب كاصفاء الأذن ، فاذا أصفى الى غير حديث الله لم يبق فيه اصفاء ، ولا فهم لحديثه ، كما اذا مال الى غير محبة الله لم يبق فيه ميل الى محبته ، فاذا نطق القلب بغير ذكره لم يبق فيه محل للنطق بذكره كاللسان ، ولهذا فى الصحيح عن النبى - صلى الله عليه وسلم - انه قال « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرا » (٣) فبين أن الجوف يمتلئ بالشعر « فكذلك يمتلئ بالشبه والشكوك والخيالات والتقديرآت التى لا وجود لها والعلوم التى لا تنفع والمفاكهات والحكايات نحوها .. واذا امتلأ القلب بذلك جاءتة حقائق القرآن والعلم الذى به كماله وسعادته ، فلم تجد فيه فراغا لها ولا قبولا ، فتعدته وجاوزته

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٦/١ « طبعة ثانية - بيروت »

(٢) المرجع السابق ١٥٤/٢

(٣) الحديث رواه البخارى فى صحيحه : كتاب الأدب - باب ما يكره أن يكون الغالب على الانسان الشعر ، وانظر مناقشة الحديث فى كتاب : ارشاد السارى لشرح صحيح البخارى للعسقلانى ٩/٩٥ ، وفى كتاب : الاجابة لا يراد ما استدرسته عائشة على الصحابة لبدر الدين الزركشى ص ٦٧ تحقيق سعيد الأفغانى ط دمشق ١٩٣٩ م .

الى محل سواء ، كما اذا بذلت النصيحة لقلب ملآن من ضدها لا منفذ لها فيه ، فانه لا يقبلها ولا تلج فيه ، لكن تمر مجتازة لا مستوطنة . . . (١) .

لهذا كله وكثير غيره اذهب الى أن فهم بيان القرآن الكريم لا يكفى فيه ما أقامه علماء الابداع الأدبي والفنى من قواعد ومعارف « فان للقرآن علوا من الخطاب يعلو على قوانين العلوم علو كلام الله على كلام خلقه » (٢) ، فعلينا أن نسعى الى تحصيل وسائل التأمل لفهم القرآن الكريم بجانب تحصيل وسائل التأمل فى علوم اللسان الذى نزل به « وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » (الشعراء / ١٩٢ - ١٩٥) .

وأول وسائل التأمل لفهم القرآن الكريم هو صفاء القلب ، ومن أراد « فليؤثر الله على شهواته » القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها ، (٣) والذين ضلوا السبيل القويم الى فهم القرآن هم الذين « شغلوا قلوبهم بالدنيا ، ولو شغلوها بالله ، والدار الآخرة لجالت فى معانى كلامه وآياته المشهودة ، ورجعت الى أصحابها بفرائب الحكم ، وطرف الفوائد ، اذا غذى القلب بالتذكر ، وسقى بالتفكر ، ونقى من الدغم ، رأى العجائب ، وألهم الحكمة » (٤) .

بهذا يرتقى المرء الى مستوى الفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك الفهم فى حقيقته نور يقذفه الله فى قلب العبد « يعرف به ، ويدرك ما لا يدركه غيره ، ولا يعرفه ، فيفهم من انوار ما لا يفهمه غيره

(١) الفوائد لابن القيم ص ٣١ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠ هـ مصر

(٢) مفتاح الباب المقفل للمحرالى ق ٣ ، مخطوط ،

(٣) الفوائد لابن القيم ص ٩٧

(٤) التوضيح السابق نفسه

مع استوائهما في حفظه ، وفهم أصل معناه ، قالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية ، ومنشور الولاية النبوية ، وفيه تتفاوت مراتب العلماء حتى عد ألف بواحد ، (١) .

ذلك ما أومن به طريقا وزادا الى الادراك الحيالى لأسلوب القرآن الكريم فى صحبة الفقه والتمثل الجيد لعلوم اللغة وغيرها ، بحيث يصبح الادراك الجيد لعلوم اللغة وسيلة وليس غاية ، بل وليس هو الوسيلة المفذة لفهم القرآن الكريم ، فان ذلك لا يكون ، فعلينا ان أردنا الرشاد الا يقل حرصنا على اتخاذ حسن العلاقة بالله وسيلة للفهم عن حرصنا على اتقان علوم اللغة وغيرها ، فتعانقهما فى عقل وقلب المتدبر ذو اثر قوى وواضح فى فهم القرآن الكريم وذلك ما تحاول هذه الدراسة جاهدة - بعون الله تعالى - أن تضع أقدامها على طريقه الطويل ، ومرتقاء الوعر .

وهى دراسة ذات منهج يعتمد على محاولة لمح بعض جمال التعبير القرآنى من خلال ملاحظة درجات من يكون السياق القرآنى لهم فى مقامات الطاعة والقرب من الله عز وعلا (٢) ، ذلك ان السائرين الى الله تعالى ليسوا على درجة سواء فى قربهم منه عز وعلا « نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم » (يوسف / ٧٦) .

(١) التفسير القيم لابن القيم ص ٤١ ، تحقيق محمد حامد الفقى

طبعة السنة المحمدية

(٢) أريد بالقرب هنا ما عبر عنه الامام الاصفهانى قائلا :

« وقرب العبد من الله فى الحقيقة التخصص بكثير من الصفات التى يصح أن يوصف الله تعالى بها ، وان لم يكن وصف الانسان بها على الحد الذى يوصف به تعالى .. وذلك يكون بازالة الاوساخ من الجهل والطيش والغضب والحاجة البدنية بقدر طاقة البشر وذلك قرب روحانى لا بدنى » راجع المفردات فى غريب القرآن للاصفهانى مادة (قرب) .

« انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا » (الاسراء / ٢١) .

واذا كان فقهاء البلاغة والنقد يشددون على الا تكلم السوقة بكلام الملوك ، والملوك بكلام السوقة ، فان الفرق لجند جلي في حديث القرآن الكريم عن الطائعين لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وحديثه عن غير التابعين ، لكن ايطرد التفريق في صياغة الاسلوب حين يختلف مستوى القرب من الحق عز وعلا بين من يتحدث عنهم او معهم من الطائعين ؟ ذلك امر لا تستطيع هذه الدراسة الموجزة ان تقدم القول الفصل فيه ، لكنها تحاول - مستعينة بالله عز وعلا - ان تقدم صورة من المفارقات التعبيرية في القرآن ، وتندبرها في ضوء ملاحظة درجة القرب من الحق عز وعلا لمن يتحدث عنهم او معهم القرآن الكريم .

واذا اردنا الوقوف على درجات القرب وترتيبها فان خير معين على ذلك الهادي البشير - صلى الله عليه وسلم - حيث يجيب عما سألته عنه الروح الامين : جبريل عليه السلام - قائلا له :

« يا محمد اخبرني عن الاسلام ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : الاسلام ان تشهد ان لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا .

قال : صدقت ، قال (اي الراوي) فعجبنا : يسأله ويصدقه ، قال : فاخبرني عن الايمان . قال ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال صدقت .

قال : فأخبرني عن الاحسان • قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك • • متفق عليه ، والملفظ لمسلم (١)

وحيث يقول صلى الله عليه وسلم : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس » رواه ابن ماجه والترمذي والملفظ لابن ماجه (٢) •

من خلال هذا نستطيع أن نرتب مقامات القرب ترتيبا تصاعديا على هذا النحو : • الاسلام - الايمان - التقوى - الاحسان • وتكل مقام مسويان : أدنى وأعلى ، المستوى الأدنى يعبر القرآن الكريم عن أصحابه باسم الموصول ذي الصلة الفعلية ، والمستوى الأعلى يعبر القرآن الكريم عن أصحابه بال الموصولة وصلتها على نحو قوله « الذين آمنوا » ، « المؤمنون » ، « الذين اتقوا » ، « المتقون » • الخ

والفرق بين العبارة عن المستوى الأدنى والمستوى الأعلى في كل مقام « أن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت ، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل ومعنى يحدث شيئا فشيئا » (٣) ولاريب في أن ما كان ثابتا مستقرا في مقام الطاعة أدل على

-
- (١) صحيح البخاري : كتاب الايمان ب باب سؤال جبريل ، وصحيح مسلم : كتاب الايمان باب بيان الايمان والاسلام والاحسان •
- (٢) سنن ابن ماجه : كتاب الزهد ، حديث رقم ٤٢١٥ ج ٢ ص ١٤٠٩ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، وانترمزي : كتاب القيامة ، وينظر صحيح البخاري كتاب الايمان : باب بني الاسلام على خمس ، فقد نقل حديثا عن ابن عمر بمعناه وراجع شرح ابن حجر العسقلاني لصحيح البخاري الباب الأول من كتاب الايمان ٤٨/١ طبعة ١٣٧٩ هـ •
- (٣) دلائل الاعجاز ص ١٢٤ ، وينظر المطالع للسعد وعليه حاشية السيد الشريف ص ١٥٠ - ١٥١ وعروس الأفراح ومواهب الفتاح ٢٦/٢ - ٣١ (شروح التلخيص)

المدح مما كان غير مستقر فالمؤمنون مثلاً هم « الذين صار الايمان وصفاً ثابتاً في قلوبهم ، الموحدون ، المنبرؤن بن الحول والقوة ، المتحققون لمضاء أقدار الله عليهم بما شاء لا بما يشاءون » الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً ، وعلى ربهم يتوكلون (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) أولئك هم المؤمنون حقا » .
(الانفال / ٢ - ٤) *

واما الذين آمنوا فهم الذين يثبتون على حال ايمانهم ، ولكن تارة وتارة ، ولذلك هم المنادون المنهيون ، والمأمورون في جميع القرآن الذين تكرر عليهم النداء في السورة الواحدة مرات عديدة (١) .

في ضوء هذا أحاول - بعون الله - التدبر الجمالي الممتع للعقل والقلب والروح دعا * وعلى الله قصد السبيل *

فقه النداء ، والتقديم والامر والرجاء

اذا ما استقصينا القرآن الكريم كله لا نجد من غير عنهم القرآن الكريم بلفظ « المؤمنين » قد نودوا الا مرة واحدة ، بينما الذين غير عنهم بلفظ « الذين آمنوا » قد تكرر نداؤهم فيه ، وأردف في الغالب بأمرهم أو نهيمهم . بل ان النداء للفرد للمؤمنين قد جاء على نهج تعبيرى يختلف عن نهج نداء الذين آمنوا *

بيانه : ان الحق عز وعلا يقول : « ... وتوبوا الى الله جميعاً ايها

(١) عروة المفتاح لابي الحسن الحرالى ق ٤ ب « مخطوط » رقم ٥٦٧

تفسير تيمور *

المؤمنون ثعلكم تفلحون » (النور ٣١) ويقول : « يا أيها الذين آمنوا توبوا
إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات
تجرى من تحتها الأنهار ... » (التحريم ٨) .

المنظرة المتدبرة ترى أن نداء المؤمنين جاء بغير أداة نداء ، كذلك ترى
أن نداء المؤمنين تقدم عليه الأمر بالتوبة . على غير المعهود عند اجتماع نداء
وأمر أو نهى ، كذلك ترى أن الأمر بالتوبة للمؤمنين قيد بقوله جميعا ، ثم
أردف ذلك كله برجاء كانت أدواته « لعل » بينما نداء الذين آمنوا ذكر فيه
أداة النداء (يا) وقدم النداء على الأمر بالتوبة كما هو شأن اجتماعهما
وقيدت التوبة بقوله « توبة نصوحا » وهو قيد مغاير لقيدها مع المؤمنين ،
ثم أردف ذلك كله برجاء كانت أدواته « عسى » .

هذه فروق تعبيرية ، لا ريب في أن في كل معاني وأسرارا ولطائف
لا تنفذ ولا تخلق على كثرة الرد . فلنحاول لمح شيء من ذلك في ضوء
« ملاحظة طبيعة المنادى في كل ، ودرجته في مقامات القرب » .

لما كانت آية سورة النور في سياق خطاب من كان في المستوى الأعلى
من مقام الإيمان « المؤمنون » ومثلهم - كما سبقت الإشارة - في مقام
الانعتاق من ربة الغفلة ، فلم يكونوا بحاجة إلى إيقاظهم بيا ، البعد ، فلما
تجلى الحق بندايمهم كان نداء تشریف يؤكد سموهم واقترابهم وانعتاقهم ،
ومن كان كذلك لم يكن بحاجة إلى ما أريد أمره أو نهيه أن يوقظ أولا ،
وينشل من الدرك الأسفل ، بل يؤمر مباشرة ، فإنه متلقيه بقلب يقظ ،
ومن ثم ترى التفاعل بين عطاء تقديم الأمر على النداء ، وعطاء حذف يا ، البعد
فكلاهما أكد سموهم واقترابهم وانعتاقهم من دياجير الغفلة .

أما الذين آمنوا فلما كان إيمانهم ما يزال فعلا من أفعالهم ، ولما يصير
بعد صفة فيهم ، فما يشبتون على حال إيمانهم وكانوا تحت سلطان الغفلة

كان ندائهم دائما بقاء البعد . مع بعده على أمرهم أو تهيئهم كى يفرعوا بقاء البعد . أولا ثم يؤمروا فيقع الأمر وقد آفاقوا من سكرة العملة ، و و نه فعل معهم كما فعل مع المؤمنين . فقدم الأمر على ندائهم لجبا الأمر وقتلهم فى قبضة الغفلة ، فلا يؤتى الأمر آكله .

واذا نظرنا الأمر فى كل ألفيناه فى آية النور أمرا بنوبه مقبده بقوله « جميعا » وهو قيد يدل على أن المطلوب إيقاع التوبة على وجه الاحتمال ، فلو أوقعها كل مؤمن « مرردا لما تحققت طاعة الأمر ، فان استخدام هذا اللفظ فى القرآن الكريم يدور مع هذا المعنى « وبرزوا لله جميعا » (إبراهيم ٢١) « يس عليكم جناح أن تاكلوا جميعا أو اشمائنا » (النور ٦١) « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » (ص ٧٢) فهو ما صرح فى توبه المؤمنين بشرط أن يكون نصوحا . واما صرح بأن تكون توبة على سبيل اجتماعهم عند إيقاعها . إشارة الى أمرين :

- ان توبة المؤمنين فى حقيقتهما لا تكون الا نصوحا خالصه من كل شوب فذلك روح توبتهم .

- ان أمرهم : امر شريف وارفاء ، ومن ثم طلب الاجتماع عليها ليكون عطاؤها اسمى وأوفر شأن ما شرط الاسلام الاجتماع فى إيقاعه زمانا ومكانا كالجمعه والحد . والمظهر فى صدر آية النور يؤكد ما ذهبنا إليه ، وكذلك النظر فى الرجاء الذى جاء فى عجزها ، وهى عجز آية التحريم ، وملاحظة الفرق بينهما .

أما توبة الذين آمنوا فقد قيد التوبة فى أمرهم بأن تكون توبة نصوحا والدلالة اللغوية لمادة « نصح » هى الخلوص . يقال : رجل ناصح الجيب لا غش فيه ، الناصح . العسل الخالص وأرض منصوحه : مجردة متصدة .

الاسات « (١) »

ومن ثم كانت التوبة البصوح هي « الصادقة أو لا يرجع الى ما تاب عنه أو لا ينسوى الرجوع » كما يقول الفيروزبادي (٨٦٧ هـ) وأعلى مراتبها : « أن لا يبقى على عمل المائب أثر المعصية سرا وجهرا (١) ، فإذا لاحظنا أن الموصوف « النوبة » مؤنث ، وصصفه « مذكر » على وزن « فعول » . وهذه الصيغة « فعول » مراد بها معنى « مفعول » لا « فاعل » لأن الموصوف هنا غير عاقل فلا ينسب اليه على معنى « فاعل » على سبيل الحقيقة : وتذكر صفة المؤنث من غير حمل خاص بفعل المفهم معنى فاعل ويقال : رجل وامرأة صبور . وما هما فعول بمعنى مفعول (٢) .

التذكير هنا يشير الى أن المراد قوة الصفة في الموصوف كما سيأتي نبأه مفصلا في آخر هذه الدراسة ان شاء الله تعالى .

هذا القيد وصياغة الصفة فيه على التذكير يشير الى أن الأمر هنا أمر « دفاع نوبة على نهج خاص : توبة خالصة من كل شوب ، وقوية في خلوصها وصفاتها ، والتصريح بهذا القيد يشير الى أن ما يقع من الذين آمنوا من توبه لا يتسم به ، ومن ثم صرح باشتراطه فيها . وهو قيد نلاءم مع طبيعة المبادئ المأمور المعبر عنه هنا بالذين آمنوا ، ونلاءم مع درجته في مقام الطاعة والقرب - على نحو ما سبق نبأه - كما نلاءم تقديم ندائهم عليه مع ذكر ياء البعد فيه .

أما الرجاء فانه قد جاء في آية النور بلعل ، وكان الخسر فعلا مضارعا دالا على الاستمرار التجددى ، وهذا لاشتماله على الزمان الذى من شأنه

(١) التعريف للسيد الشريف ص ٦٣ طبعة سنة ١٣٥٧ هـ .

(٢) الأشباه والنظائر فى البحر للسيوطى ج ٣ ص ١٣٨ تحقيق طه عبد الرؤوف ،

التفسير في مفهوم الفعل المؤذن باعتبار التجدد في الحدث (١) .

وفي آية التحريم كان الرجاء بعسى التي يكون خبرها فعلا مضارعاً مسبوقةً بأن المصدرية . ولعل من وراء ذلك معاني وأسراراً برز في الفرق بين الرجاء بلعل والرجاء بعسى (٢) .

أساس الفرق بينهما - عندى كىلاعى - طبيعة كل من الادائين ، بمعنى أن « لعل » حرف ، شأن الحروف الجمود ، وقد جاءت على أصلها من الجمود وحاء خبرها في القرآن الكريم اسما مشمعا « لعلك تاحح نفسك ألا تكونوا مؤمنين » (الشعراء ٣) .

وحاء خبرها فعلا صريحا ، وهو الأمر ، ولم يرد في القرآن الكريم فعلا مضارعاً مسبوقةً بأن المصدرية .

أما « عسى » فهي فعل ، شأن الأفعال النصرف ، عبر أن « عسى » قد خرجت عن طبيعة الفعل بالجمود ، ومن شأن لغة العرب أنه إذا ما أريد بالفعل المبالغة في معناه أخرج عن معاد حاله من النصرف فصحه - على حد تعبير ابن جنى (٣) .

فالأخراج عن « يود المفعط منسحب إلى الأخراج عن « يهود حاله في الدلالة ، ومن ثم لما خرجت « عسى » عن « يهود حال الأفعال من النصرف

(١) بنظر مواهب الفلاح لأبى يعقوب ٢٧/٢ ، وتقرير الانبأبى على السعد والتجريد ٢٣٧/٢ ، ٣٤٢ .

(٢) لعل وعسى ومواقع كل منهما في القرآن الكريم بحاجة إلى دراسته تعتمد على الاستقصاء والرصد الكامل والموازنة بين الآيات وسباقاتها . الخ وذلك ما أعد المدة له طالما من الله العون ، وما أذكره هنا مجرد ملاحظة قابلة للرد أذكرها ما لتحك بعقول وقلوب صفوة ناقلية .

(٣) راجع المصنف لابن جنى ٣٦/٣ تحقيق محمد علي النجار .

خرجت عن معهود الدلالة على الرجاء بالمبالغة فيه ، فدلالتها عليه أبلغ وأعظم من دلالة غيرها عليه ، واجههم سرير البلاغيين موقف يشبه هذا مع « هل » (١) .

ولما كانت « عسى » أكثر مبالغة في الدلالة على الرجاء كان من المناسب أن يكون خبرها مضارعا مسبوقا بأن المصدرية ، وليس شك في أن المضارع مع « أن » المصدرية يخرج عن معهود حال الفعل الصريح من حيث الدلالة على الحدث ، فكان كل من « عسى » وخبرها أكثر مبالغة من « لعل » وخبرها في الدلالة ، وكل منهما حيث ورد في سباقه بالغ درجة الإعجاز في بلاغه بغير تفاوت .

أما الحال الذي اقنضى الاثبات بعسى مع الذين آمنوا فمرجه إلى أن هذا الإبلاغ هو ضرب من التأكيد الذي هم أحوج إليه من الذين هم في المستوى الأعلى ، المؤمنون ، حقا لهم على إيفاع ما أمروا به من توبة نصوح ، ومن كان أقل بقبيل كان أشد احتياجا إلى توكيد وتوثيق وإبلاغ ، فكان ترجاء ما عره مع المؤمنين حيث لم تخرج « لعل » عن معهود حالها لفظا ودلالة ، وجاء خبرها مضارعا صريحا غير خارج عن حاله لأن في هذا أيضا صريحا من المناسب بعدها مع طبيعة وكنه الحدث في المضارع المنحصر به « تفلحون » فإن كلفاح لذة ، وثبات اللذة يقل حرارة ادراكها والتمتع بها . فاسجد أعون على التمتع باللذة من ثبوتها وقرارها . ومن ثم عمو بلعل ماداه على وثوقهم وقرار الإيمان في قلوبهم ، وعبر بالمضارع في

(٢) للبلاغيين موقف « قراه تعالى » فهل أنتم مسلمون « قرروا فيما أن ما عليه نظم هذه الآية أبلغ من قولنا فهل أنتم مسلمون ، أو فهل تسلمون أو أفأنتم مسلمون أو أفأنتم تسلمون أو أفنتسلمون » بحمدون فيه على فكرة للخروج عن معهود الحال . راجع المصباح للسكاكي ص ١٤٨ والمطول ص ٢٣١ ، وعروس الأفراح ج ٢ ص ٢٦٩ .

حبيبها إشارة الى مجدد لهذه الفلاح لهم في الدنيا والآخرة (٦) .

٥- ترتيب الصفات

إذا شئنا أن نلمح وجهها من جمال ترتيب صفات متعددة أوصوف
 حد في ضوء ، أوصوف في مقام القرب فاما نحاول أن نمدبر
 له تعالى :

« قل أؤنسكم بخبر من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من
 تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير
 للعباد . الذين يقولون ربنا آتنا ، فاعفر لنا ذنوبنا ، وما عذب
 النار . الصابرين والصادقين والقانتين ، والمطيعين والمستغفرين بالأسحار . »
 (آل عمران ١٥ - ١٧) .

في هذه الآية خمس صفات عطف بعضها على بعض بالواو ، ورتب
من نوع خاص ، فهل من وراء هذا معان وأسرار ولطائف ؟

از معشری و جمال الترقیب بینوا :

لا تری از مخشری (۵۳۸ =) م. ا. س. را بجائی فی کشفه
سیر الی شیء من جمال ترتیب هذه الصفات وان اشار الی وجه عطفها
بالواو (۲) کما سیأتی ان شاء الله تعالی .

رؤية الميضاعوى لجمال الترتيب :

الامام البيضاوى (٦٩١ هـ) يذهب الى أن هذا الترتيب « حصر
للعلماء السابقين على أحمد بن حنبل ، فإن معاملته مع الله - سبحانه وتعالى -
أما توسل ، وأما طاب »

(١) ما قلناه في اعل وخبرها اجتهد شخصي أرجو ان يكون موضح
النقد الحضيف *

(٢) المضاف ج ١ ص ٤١٧ .

والتوسل اما بالنفس ، وهو منعها عن الرذائل ، وحبسها على
المضائق ، والصير شملها .

واما بالبدن ، وهو اما قولى وهو الصدق . واما فعلى وهو القدوت
الذى هو ملازمته الطاعة .

واما بالمال ، وهو الاتفاق فى سبيل الخير .

واما الطلب ، فالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع
لها « (١) » .

ما قاله الامام البيضاوى قائم على الحصر والتقسيم العقلى لمقامات
المسالك ، ابرز فيه وجه التقسيم والحصر ، اما وجه الترتيب ، فهو لم
لم سرزه ، وان . ب لن نضل فى طلبه من كلامه ، حيث يبدو منه أنه قدم
مقامات التوسل على مقام الطلب « اياك نعبد واناك نستعين » (المائدة ٥)
وتقدم مقام التوسل بالنفس والصبر ، لأنه راس كل فضيلة ، وبغيره
لا يحق امام من المقامات الاخرى . ثم قدم التوسل بالبدن على التوسل
بالمال ، فهو أعم وأشمل وأفسى تحقيقا حين تنفتح زهرة الحياة الدنيا ،
وقسم من البدنى ما كان قويا « الصدق » لأنه اس ما كان فعليا « الثنوت »
ولا يكرن الا به . ثم حتم بالتوسل المالى الذى لا يخاص . ويصفو فيه
الا بصفوة .

وبعد تحقق مقامات التوسل المتعددة يكون مقام الطلب « الاستغفار
لاسحار » ، فيؤتى اكله .

ذلك ما تمكن ملاحظته فيما ذهب اليه الامام البيضاوى ، وهو عندى
لدى والطف مما ذهب اليه الامام أبو حيان (٧٥٤ هـ) .

(١) أنوار التنزيل ج ٣ ص ١٢ « على هامش حاشية الشهاب الخفاجى »

رؤية أبي حيان لجمال الترتيب :

يذهب الامام أبو حيان في بحره المحيط الى أنه « لما ذكر الایمان بالقول أخبر بالوصف الدال على حبس النفس على ما هو شاق عليها من الكاليف ، فصبروا على أداء الطاعة ، وعن اجتناب المحارم ، ثم بالوصف الدال على مطابقة الاعتقاد في القلب للفظ اساطق به اللسان ، فهم صادقون فيما أخبروا به من قولهم « ربنا اننا آمنا » وفي جميع ما يحشرون * وقيل هم الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وألستهم في السر والعلانية ، وهذا راجع للقول الذي قبله ، ثم بوصف القنوت * * * ثم بوصف الانفاق ، لأن ما تقدم هو من الاوصاف التي نعمها وتنصر على المنصف بها لا تنعدي ، فأنى في هذا بالوصف المنعدي الى غيره ، وهو الانفاق * * * ولما ذكر أنهم ربوا طلب المغفرة على الايمان الذي هو أصل النقوى أخبر أيضا عنهم أنهم عند اتصافهم بهذه الأوصاف الشريفة هم مستغفرون بالأسحار ، فليسوا برون ادعائهم بهذه الأوصاف الشريفة مما يسقط عنهم طلب المغفرة * (١) »

فيما قال أبو حيان ما شير الى علاقة بعض الصفات الخمس ببعضها ولا سيما ختمها الاستغفار بالأسحار وتقديم ما هو خاص بالمنصف وادافه بالمنعدي الى غيره ، وفي هذا فهم لترتيب الصفات على وفق مقضى التسلسل المعنى بغض النظر عن المتصف بها ودرجته في مقامات القرب ، فهو ترتيب غير وثيق الاختصاص بالذين اتقوا *

رؤية البقاعي لجمال الترتيب :

الانام البقاعي (٨٨٥ هـ) يريد أن يبرز وجه كونها خمس صفات ،

(١) البحر المحيط ج ٢ ص ٤٠٠ . طبعة سنة ١٤٠٣ هـ دار الفكر

وعلاقة ذلك بدعائم الاسلام الخمس التي حددتها الهادي البشير - صلى الله عليه وسلم في قوله :

« بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله ، وإن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » .
« متفق عليه واللفظ للبخاري » (١) .

يقول : « لعله سبحانه - أشار بهذه الصفات الخمس المعطوفة إلى دعائم الاسلام الخمس ، فأشار بالصبر إلى الايمان (٢) ، وبالصدق إلى إيتاء المصدقة لدعواه (٣) ، وبالمقرب الذي مدار مآدبه على الاخلاص في الصلاة التي هي المراقبة (٤) ، وبالاتفاق إلى الحج الذي هو أعظم مقوماته » .

(١) صحيح البخاري . كتاب الايمان - باب دنى الاسلام على خمس ، وصحيح مسلم كتاب الايمان - باب أركان الاسلام .

(٢) وجه إشارة الصبر إلى الايمان - عندى - أن الشهادة المعبر عنها من الحديث النبوى « من فى حررها الصديق المطمئن لاعتماده على أوثى وأقوى وسائل الادراك والعلم ، المشاعده ، سبوا ، كانت مشاعده يعين ارس أو يعبرون » . وهو المرادة هنا ، فالشهادة الكاملة الحقة هي جوهر الايمان وحقيقته . لأن استخدام القرآن لكلمة الايمان يجعلها مصصمة معنى الصديق والاطمئنان ، وكانت صفة الصبر مشيرة إلى الشهادة التي هي جوهر الايمان لقوله - صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الايمان » . حديث حسن الاسناد كما قال العراقى تعليقا على احنا علوم الدين (٢٣١/١) لمغازى « كتاب أسرار الصوم » .

(١) ومن ثم أطلق على الزكاة فى القرآن الكريم صدقة كما فى قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء » ، الآية (البقرة ٦٠) .

(٢) الفتوى فى لغة العرب « الطاعة ، والسكوت ، والدعاء ، والقيام فى الصلاة والامساك عن الكلام ، والقواضع لله تعالى » (القاموس المحيط - قنت » .

وكل هذه المعانى لا تجتمع على حقيقتها فى شىء كاجتماعها فى الصلاة ، ولا سيما اذا كانت صلاة من ارتقى إلى مقام القوى ، فصلاة القنوت اذن هي جرهر الصلاة وروحها ، « أمن هو قانت آناء الليل ساجدا يعذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » (الزمر ٩) .

المال (١) وبالاستغفار الى الصيام الذى مبناه التخلى من احوال البشر ،
والتحلل بحلة الملك (٢) . لا سيما فى القيام فى السحر ، (٣) .

وبعد ما أبان عن وجه اشارة كل صفة من صفات الذين انقشوا الى
دعامة من دعائم الاسلام الخمس ، يبرز وجهها من وجوه ترتبها على هذا
النهج وعلاقة كل صفة بما قبلها فيقول :

« سر ترتبها انه لما ذكر ما بين العبد والخالق فى الموحيد الذى هو
اعل ، أتبعه ما بينه وبين الخلاق فى الاحسان ، ولما ذكر عباده البدن
مجردة عن عبادة المال ذكر عباده ظاهرة مركبة منهما شعاعها تعرية
الظاهر ، ثم اتبعه عبادة بدنية خفية عمادها تعرية الباطن ، فحتم بمثل
ما بدأ به ، وهو ما لا يطلع عليه حق الاطلاع إلا الله تعالى ، (٤) .

ما ذكره الامام البقاعى اقامه على نهج التريب الصاعدي المسير الى
النمو الداخلى للمعنى ، ثم على نهج التعانق الثنائى بين الصفات بمعنى انه
أبرز المقابل التكاملى بين الصفة الاولى والثانية . الاولى احسان الوقت بحسب

- (١) وذلك أن من كان ذا اقتدار مالى فان بقية المعقبات يمكنه
احتيازها سواء كانت صحية أو آنية .
- (٢) لا شك أن أول احوال البشر اليوم ثم الأكل ، ولا شك أن
المستعمر بالأسفار والصائم منخل عنها متحل بحلية الملك ، لا يأخذه منه
ولا يوم ، (المرة ٢٥٥) ، وهو بطعم ولا بطعم ، (الانعام ١٤) وفى
هذا اشارة أيضا الى وجه من وجوه اختصاص الصوم بأنه : « كل عمل
ابن آدم له إلا الصوم فانه لى وأنا احزى به » ، يوفق عليه واللفظ لمسلم
كتاب الصوم باب فصل الصيام - فى الصحيحين .
- (٣) نظم الدرر ... البقاعى ج ١ ق ٢٨٢ مخطوط رقم ٢١٣ تفسير
دار الكتب .
- (٤) ارضع السائق نفسه .

الله عز وعلا ، والمالية احسان الوفاء بحق الخلق . والأولى معنوية خفية
والثانية حسية ظاهرة ثم تأتي الثالثة فكانت عبادة بدنية فتكتمل العبادات
قلبية - مالية - بدنية . ولما كانت الأولى « القلبية » سارية في كل من
المالية والبدنية ، حات الرابعة مركبة من الثانية والثالثة ، فكانت مالية
بدنية مع سريان القلبية فيها أيضا سريان الروح في الجسد ، ثم تقابلت
الخامسة والرابعة كما تقابلت الثانية مع الأولى ، فالرابعة قائمة على
تجريد الظاهر بالاحرام ، والخامسة قائمة على تجريد الباطن بالامساك عن
الشهوات كما أن الرابعة جليلة ظاهره والخامسة سر خفية . وللهذين في
أن كليهما تنتهي يوم عيد ومغفرة .

ثم يشير البقاعي الى اعتلاق الخامسة بالأولى حيث أن كلا منهما حفي
لا بطلع عليه الا الحق عز وعلا ، فالإيمان ، والصيام سر من العبادات
يؤمر كما يرى بعد أن جلى الترتيب التصاعدي والمعاني الكامنة
في الصفات أشار الى اعتلاق الأخيرة فقط بالأولى . غير أن فيهما وجه
آخر يكمل ما ذهب اليه البقاعي .

رؤيتي لجمال ترتيب هذه الصفات :

ادعب الى أن ترتيب هذه الصفات يقوم أساسا على نهج التشريك
الدائري الذي لا بدري أين طرفاه : مبتدؤه ومبتهاه . بمعنى أن المفارقة بين
ترتيب الصفات في الآلة ، وترتيب ما أشارت اليه من دعائم الاسلام في
الحديث على روايه البخاري التي سجلناه آنفا ننحصر في آخر الصلوة
المشيرة الى الصلاة لتكون في الآلة الصفة الثالثة وهي بهذا كانت في الآلة
في موقع مركز الصفات . وهو المقام الذي يتناسب مع طبيعة الصفة ذاتها
أولا ومع طبيعة ما تشير اليه من الدعائم « الصلاة » ثانيا ومع طبيعة
الموصوف « الذين اتقوا » .

القنوت هو الطاعة والخشوع والتخضوع لله تعالى ، وموطن هذا قلب العبد الذى هو مركزه ، فقلب كل شئ مركزه وذلك يتعاضد مع كون الصلاة عمود الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها هدم الدين ، كما أخبر الصادق الأمين - صلى الله عليه وسلم - وكل هذا أيضا يتعاضد مع مقام التقوى الذى ارتقى الموصوف بهذه الصفات الى المستوى الأدنى منه « الذين اتقوا » فالهادى الشير - صلى الله عليه وسلم - أخبر « التقوى ههنا » ويشير الى صدره * وفق كل هذا أشار بوضع صفة القنوت فى مركز الصفات الى أنه يجب أن تكون حقيقة القنوت فى قلب كل صفة وفعل ، فبغيرها تكون الاشياء خواء *

إذا ما بدا شئ من جمال كون صفة القنوت مركزا لهذه الصفات فاما إذا تأملنا علاقة الصفة الأولى وما تشير اليه (الصابرين - الايمان) بانصفه الاخره وما تشير اليه (الاستغفار بالاسحار - الصيام) ألقينا فوق ما قاله البقاعى فيها - اعتلاقا وثيقا ، فالصيام نصف الصبر ، والصبر نصف الايمان كما أخبر الهادى البشير صلى الله عليه وسلم ، اصف اليه ان الصيام قائم على بحلية الباطن الحسى والمعنوى وتصفيه ، وذلك هو حقيقة الايمان أيضا ، قرب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش ، كذلك نضيف اليه انه لا يحرص على حقيقة الايمان واكماله فيه ، ويستعذب تكاليفه الا الصابرون ، ومن ثم كان أشد الناس بلا الانبياء ثم الأول فالأول ، ولا يحقق الاستغفار بالاسحار واكثر منه ، ويحرص على اكماله فيه الا من كان صابرا ، فالاعتلاق بين الصبر الاخرة والأولى حد حلى ووثيق *

وإذا تدبرنا علاقة الصفة الثانية وما تشير اليه (الصادقين - اركاة) بالصبر الرابعة (المبغين - الحج) ألقينا أن كلا منهما فيه نفع للمذنب والآخرى ، وكل منهما تطهير ونماء ، وكل منهما قائم على الاقدار المالى ،

وأيضا على الانفعال والخروج من عرض من أعراض الدين ما ، وكل منهما
عمادة حائلة ، فالترشاج متعددة ، والاعلاق جد وثيق .

بدأ أن مهج التريب بين هذه الصفات قائم على التشكيل الدائري
الذي اذهب إلى أنه يكاد أن يكون السمة الغالبة على بناء الآيات والسرور في
القرآن الكريم . وذلك محال رحيب بحاجة إلى دراسة مستقلة مفصلة أعد
العدة لها وزحو الحق اعون على انبائها والاخلاص فيها لوجهه سبحانه .

وإذا تأملت ما قلته وما قاله الامام النجاشي العيث ان ما ذهبت اليه
اسماء واكمال لما قاله الامام ، وأن ما قاله لا يصلح بدون ما أبدته من
وسق الاعلاق على نهج التشكيل ، فصلا عن أنى حرصت على الاعتماد في
تدري على الحديث السوي ، والنجاشي نهج التريب التصاعدي والعائق
البنائي التكاملي بين الصفات ، ونحن نهج التشكيل الدائري لها تعطى تكاملا
فان شئت أصف اليهما ما سار عليه الامام البيضاوي والامام أبو حيان فان
كل وجه مما قاله وما قلناه وما نقوله غرنا لا يساقص مع الآخر بل كل
منها وجه من وجوه جوهره ذات ألوان متعددة ، يختلف الوصف باختلاف
موقع الواصف منها . وذلك شأن البلاغة المبدعة فكيف بالبلاغة المعجزة
التي لا تخلق عطاؤها على كثرة الرد ؟

أما وجه محالها ترتيب الصفات لمرتبب الدعائم في الحديث السوي ،
فهو فيما علم - راجع إلى طبيعة الموصوف في الآية ، الذين انبوا ، فالأدب قد
حانت في معرض التزميد في رتبة الحساسة الدنيا حتى لا يهاوى نصب
سلطانها اسما المصطفى صلى الله عليه وسلم . ولا يسمو إلى مقام الزهد
الاكمل فيها طاعرا وناظرا الا من استطاع أن يدع مالا بأس به خذرا من
الوفوع فيما به بأس .

ان ذلك لمن ارتقى إلى مقام التقوى الذي رسم حدوده المصطفى صلى

الله عليه وسلم - كما سبق تبينه ، - لمن ارتقى الى ذلك بعدما حقق دعاء الاسلام بصبره عليها فيكمل فيها . ومثله لا يكون وجود الصفات (الدعائم) فيه بعد رقيه الى القوى وجوداً على نهج التدرج والمصاعدة وحدد . وانما على سبيل الاكتمال الدائري الذي تسبح فيه الصفات في حركة دائرية لا تتحدد .

اما الحديث النبوي . فان ترتيب الدعائم فيه مطور فيه الى مكانه كل في اقامة بناء الاسلام ، وفي تحقيق المقام الاول من مقامات القرب . بمعنى ان كل واحد من الدعائم في الحديث هي أقوى مكانه مما بعدها . واشتمل فرضاً في الامة منها :

فروى بن الترتيب في الحديث النبوي والترتيب في الآله المذكورة . الترتيب فيها مطور فيه الى طبيعته كل صفة والى طبيعة الموصوف والسياف الذي حلت فيه . ومن ثم فاني ذاهب الى ان ما في الآله من ترتيب لا يستقيم الا مع عطف الصفات بالواو بحيث لو عطف بالفاء او ثم لكان ذلك غير منسق مع النهج الذي بنى عليه ترتيبها في الآلة .

الواو حين يرد بين معاطفين ، لا يكسبهما ترتيباً وهي الوقت ذاته لا يليق بعدم ما آخر أو تأخر ما قدم مني يحد في سباني محرر محكم البناء ، أما الفاء وثم فان كل واحدة تدل على ما بين المعاطفين من ترتيب متعاقب او متراج زمانيا او رتبيا .

الترتيب الذي معنا في الآلة كان من ذات المعطوفات لا من اداة العطف ومن ثم اتاح لها الحركة الدائرية التي لا يسفر فيها عنصر في مكانه . فلا يعطيه بعده في الذكر فضلاً على غيره المؤخر في بعده فليس انصف به ، بل الجميع على درجة سواء في التحقق والكمال .

فيه عطف الصفات المتعددة الموصوف واحد بالواو وتركه :

إذا كتب قد شئت إلى شيء من جمال ترتيب الصفات المتعددة الموصوف
واحد في صوم مقامات العرب في آية آل عمران رقم (١٧) فإني هنا
أسير وحه عطف هذه الصفات ذاتها في منظور عدم عطف الصفات المتعددة
الموصوف واحد في سورة التوبة *

إذا عدنا إلى طبيعة اللمعة التي نزل بها القرآن الكريم ، وواقع
استخدام المدعين من أهلها فإننا نرى كما يقول الامام ابو الحسن
الحرالي (٦٣٧ هـ) « العرب تعطف الصفات اذا اكتملت ، وتتبع بعضها
بعضا اذا بركت والتأمت ، بمعنى مثل : « الرمان حلو حامض » أي من غير
صادق الحلاوة والحموضة » (١) *

« الحلاوة غير كاملة في الرمان ، وكذلك الحموضة ، كان التفاوضا
فيه السما . بفاعل أثمر طعما آخر وصفة أخرى ، وكان تعبير العرب عن
اسمها . اصغين : الحلاوة والحموضة ، كصفتين متقابلتين ، من غير عطف
بالواو . »

فالواو اذن حين تكون بين صفات متعددة الموصوف واحد تعطى
اكتماها في الموصوف ، وحين لا تكون تعطى ان الصفات قد اجتمعت
فصارت كالصفة الواحدة *

امام المفسر ابن البلاغين الزمخشري صرح في هذه الآلة بسحو ذلك فقال
« الواو المتوسطة بين الصفات المدلالة على كمالهم في كل واحدة منها » (٢)
ووجد معه البيضاوي (٣) . وهما قد جعلوا الكمال للموصوف في الصفة .

(١) نظم الدر للبقاعي ج ١ ق ٢٨٢ « مخطوط »

(٢) الكشف للزمخشري ج ١ ص ٤١٧

(٣) انوار التنزيل للبيضاوي ج ٣ ص ١٢

بيما الحرالى جعل الكمال للصفة في الموصوف ، وعلى اى فان الشئ
انا حيان ذهب الى انها ، عطفت بالواو ولم ينع دون عطت لنسان كل
صفة من صفة ، اذ ليست فى معنى واحد ، فنزل تغاير الصفات وتباينها
منزلة تغاير الذات ، فعطفت هـ (١) وشئ، مثله عند البهاء انسيكى (٢) .
وابى يعقوب المغربي (١١١٠ هـ) فى مواهب الفتاح (٣) والمرحوم سليمان
نوار فى مذكراته فى الفهم والاصل (٤) بل ان انا حيان ليصرح برفضه
ما ذهب اليه الزمخشري قائلا هـ ٠٠٠ ولا نعلم انعطت فى الصفة بالواو
بدل على الكمال هـ (٥) على الرغم ان ما رفضه ابو حيان هو المسبق مع طبعه
الموصوف ، وجوه سورة آل عمران ، بمعنى ان دلالة الواو على اكتمالهم
فى كل صفة يلتقى مع حقيقة الذين انما لانهم هم الذين كملت منهم دعائم
الاسلام ، وحققوا الايمان بحيث صار صفة من صفاتهم وجاوروا مقام
هـ اوتاك هم المؤمنون حنا هـ الى مقام التقوى ودلالة الواو على الاكتمال فى
الصفة نحمل فى محاورها الدلالة على اجتماع هذه الصفات مع صفاتهم
لا يكملون فى واحد، الا بعد تحقق اجتماعها جميعا ، فالواو وان كانت
هـ تعرى من معنى الجمع (٦) الا انها بين الصفات المتعددة الموصوف
واحد ندر فيها دلالة على الاكتمال فى الصفة مدارة ، لان الاكتمال فى
الصفة هو الرئيس المراد ابرازه فيهم ، وهو المتاعم مع طبعه من محاور
مقام الايمان الحق الى مقام التقوى والورع ، ومن ثم لما كان سن التقوى

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٤٠٠

(٢) مواهب الفتاح ج ٣ ص ٧

(٣) مواهب الفتاح ج ٣ ص ٧

(٤) عروس الأفراح ج ٣ ص ١١٤

(٥) مذكرات فى الفصل والوصل ص ٤١

(٥) البحر المحيط ج ٢ ص ٤٠٠

(٦) شرح المفصل لابن يعيش ج ٨ ص ٩٠

فوق سن الايمان عطا امداحهم كلها بالواو اذانا بكمالهم فى كل وصف
ونمكهم فى كل ، (١) .

كما انه هو المسامح مع السورة انى تصدر فيها هذه الابات وهى
سوره ، آل عمران ، اى السورة التى سميت باسم من اصطفاهم الحق
على العالمين ، واصطفاؤهم ببرز صفة الكمال فيهم حتى كانت منهم من
سحب درجه الكمال ، كما اخبر الصادق الامين صلى الله عليه وسلم
« ... كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا مريم بنت عمران
 وآسمه اراءه مرقون ، رواه البخارى (٢) بل انها ارفقت الى ربه الصدمه
(وانه صدمه ٠٠) (المائدة/ ٧٥) ، وذلك كله يتناغم مع طبيعة دلالة
الواو بن صفات النور اذ ان ... ما سبقت الاشاره اليه .

« ما لما سبق سدر الوجه الجمالى لترك الواو بن بعض صفات متعدد
لوصوف واحد وانما بها بن بعض آخر ، وذلك فى سورة التوبة حيث يقول
الحق « ان الله اسمرى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الاجر ، فقاتلون
فى سبيل الله فمصلون وقتلون وعدا عنه كما فى التوراه والانجيل والقرآن
ومن اوفى بعهد من الله ، فاستشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو
الفوز العظيم المتأبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون
الأمرون بالمعروف والنهي عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر
المؤمنين ، (التوبة - ١١١ - ١١٢) .

نلاحظ أن الآيه (١١٢) قد جاء فى صدرها مجموعه من صفات مرادفة
وهى سب صفات ، وفى عجزها ثلاث صفات بينها الواو العاطفه ، ونلاحظ

(١) نظم الدرر للبقاعى ج ١ ص ٢٨٢ ، مخطوط .

(٢) صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى ان الله

الملاكة مأمرون . .

ان الموصوف بها كلها هم المؤمنون حيث تحدثت في سياق الحديث عن اشتراء الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . وختمت بأمر المصطفى صلى الله عليه وسلم بتبشيرهم وإذا اردنا موقف امام التفسير البياني للقرآن الكريم : جار الله الزمخشري نجده في هذا يكفى بقوله : « أي السابون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصائص » (١) . فهو يشير بقوله « الجامعون » ، الى ان ترك العطف بين الصفات الست الأولى كان للدلالة على جمعهم لهذه الصفات ، وكأنها صفة واحدة ، ثم لا يعلق على العطف في الصفات الثلاث في عجز الآية ، ولعله اكفى بما اشار اليه في موطن سبق في كشفه من أن « الواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم في كل واحدة فيها » وقد سبقت الاشارة اليه هنا غير ان البيضاوي ، وان نقل عبارة الزمخشري في توجيه ترك العطف في صدر الصفات الا انه لما جاء الى التوجيه للعطف في آخر الصفات قال « والناهون عن المكر » عن الشرك والمعاصي والعاطف فيه للدلالة على انه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة كانه قال الجامعون بين الوصفين ، وفي قوله تعالى « والحافظون لحدود الله » أي وبما بينه وعينه من الحقائق للنسبة على أن ما قبله مفصل العضائين ، وهذا مجملها » (٢) .

وما قام البيضاوي يمكن الاعراض عليه بانه ذهب في ترك الواو أولا سعا للزمخشري الى انه للدلالة على الجمع ، وفي الابيان بها هنا الى الدلالة نفسها . بيد أنه يمكن دفع الاعراض بأن الصفات آخرها متعابلة وهي أولا غير متعابلة ، وكأني بالبيضاوي يذهب الى أن دلالة ترك الواو بين الصفات غير المتعابلة لموصوف واحد هي دلالة مجئها بين صفات متعابلة لموصوف واحد ، وذلك وان كان له وجه من الحسن الا انه لا يفهم معارفا

(١) الكشف للزمخشري ج ٢ ص ٢١٦

(٢) انوار التبريل للبيضاوي ج ٤ ص ٢٨٦ .

دقيقاً مطرداً ، ولذا لجأ الى القول بان الواو العاطفة نقولها ، الحافظون
لحدود الله ، عاطفة مجتمعة على مفصل * .

ودعّب الامام النجاشي الى انه ، لما كان الامر بالمعروف ملاًزماً
الذهي عن المكر وعكسه عطف عليه ليكرها صفتين مستعملتين بالفصل بخلاف
ما قبله ، فانه لا يسوّم ان امرين منهما صفة واحدة ، (١) ومن قبله ذهب
ابن الزمكاني الى انه ، عطف الذهي على الامر لان الذهي اراد به منع الفعل
وانفاؤه على العدم والامر اراد به ايجاد الفعل ، وانعدم والوجود متضادان
لا يجتمعان ، (٢) وكذلك دعّب العليسي الى ان وجه محيى الواو بين
الامر وبين العدم والناعي عن المكر ، هو التضاد بين الصفتين ، (٣)
وبل ما ذهب اليه ، ان دعّب الشيخ الطاهر بن عاتق (٤)
وما ذهب اليه ، ان الواو ليس هو الوجه المرضي عندى ذلك ان
المقابل لا صالح ، ان الواو ، والا وان الحق ، قول ، اذا وقعت الواقعة
ليس اوقعها كعادة خانضه رافعة ، (الواقعة / ١ - ٣) بل انه قال فى
الآلة نفسها (الاكبر الساحدون) ، وكذلك امرؤ القيس قول

مكر وفردق - ان يدبر ده ، - كحلود صخر حطه السبل من عل

فاعلم كيف ان امر الكلمة الشاعرة ابرز دلالة تنابع الصفات المتعاقبة
بقوله (دعا) ، والاشارة بحلود صخر حطه السبل من عل *
الذى اذهب اليه ، ان الواو بين الصفات السبب الاولى وحسنها بين
الصفات الثلاث الاخيرة ، فلهذا ، الوصوف بها ، ودرجته فى مقامات القرب

(١) عروس الافراح ج ٣ ص ١١٤

(٢) التبيان ص ١٣٠ طبعة ١٢٨٢ هـ بغداد

(٣) الطراز ج ٢ ص ٢٥

(٤) التحرير والتنوير ج ١١ ص ٤١

بمعنى أن الموصوف بهذه الصفات هم « المؤمنون » وهم دون الموصوف
 في آية آل عمران السابق ذكرها ، ومن ثم كان الموصوف هنا ليس على
 مستوى اكتماله في الصفات الست الأولى لأنه لا يكمل فيها إلا من اجتاز
 مقام الإيمان الحق إلى مقام التعوى وأوثق ما يزالون مقيمين في مقام
 الإيمان فهي تجتمع فيهم على غير اكتمال « فاعلم - سبحانه - أن المراد فيما
 تقدم من الأوصاف الاتيان بما أمكن منها فإني بها اتباعاً دون عطف لذلك
 وأشار إلى أن الأمر بالمعروف . والنهي عن المنكر ، والوقوف عند الحدود
 لا يقع منه إلا بالسام ، لأن المقصر في شيء من ذلك ، أما راض به -
 الدين . وأما عدم بنفسه ، فيجب التجرد التام منه لأن الهوى أصعب أقسام
 العادة لأنه معاني بالفكر وهو ممر للمعذب . . وربما كان معه صرب
 وقيل . فذلك عطفها ولم تتبعها ، (١) فلو أنه عطف السبب الأول كما
 عطف ما بعدها لشار بهذا إلى أن المراد الانسان بها على وجه الكمال وإن
 اشتراه الله الأنفس لن يكون إلا من اكتمل في هذه الصفات الست ،
 وليس المقام لذلك أما الثلاث الأخرى فهي لا تقل أبداً إلا إذا كانت كاملة
 لأن نقصها - على الأقل - يوحى بالرضا بضدّها وذلك فدح في العقيدة
 وروحها ، أصف إليه أن الثلاث الأخرى معلومة بعزيم ، وما كان كذلك كن
 المصنف به بحاجة إلى الاكتمال فيه كبعضها بمعنى له انقائه لصعوبته .

وبهذا نسبي إلى أن عطف الصفات المتعددة لموصوف واحد من الخلق
 يدل على اكتماله في كل صفة بعض المطر عن كونها متقابلة ، أو غير متقابلة
 وترك عطفها يدل على اجتماعها فيه على غير اكتمال وإنما هي تجتمع كأنها
 صفة واحدة بغض الطرف عن كونها متقابلة أو غير متقابلة وإن أعطى
 وتركه يتحكم فيه طبيعة الموصوف وسياقه .

(١) نظم الدرر للبقاعي ج ٢ ق ٣٤٨ « مخطوط »

فقه الافراد والجمع والتشبيه :

من المواطن السى نبرز فيها المفارقات الأسلوبية نظرا الى طبيعة المنحدث عنهم ، ودرجه كل فى مقامات القرب قوله تعالى : « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » (آل عمران - ١٣٣) .

وقوله تعالى : « سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (الحديد - ٢١) .

نلاحظ أنه فى آية آل عمران * عبر بالمسارعة ، وجعل الجنة حرمياً السماوات ، جامعاً للسموات بغير تشبيه ، بينما آية الحديد عرضها بالمسابقة ، وجعل لجنه عرضها ، كعرض السماء والأرض ، مفرداً للتسمية . داكرا كاف التشبيه * هذه العروق المعبره بامح بعض سرارها لخصائمه حين يلاحظ من أعدب * الجنة فى كل آية ، ودرجه فى مقامات القرب * .

آية آل عمران حرمته بقوله « أعدت للمتقين » وآية الحديد . من فيها * « أعدت للذين آمنوا » * وفرق حد شاسع بين من كان فى المستوى الأول من مقام الايمان ، ومن كان فى المستوى الأعلى من مقام القسوى ، ولارب فى أن المسارعة المعبر بها فى آية آل عمران أدل على العنسية والحرص على الملوغ قبل الآخرين . وهى مفعمة بالملهف وترسم صسورة المتقين وكل واحد منهم يحاول الاسراع الى أحضان هذه القفرة وعمده الجنة ، وذلك الذى باهل الكمال أما المسابقة فانها لا تبدل على أكبر من السعى الى القفرة . الا باقى الى الحنة دون تصور لدرجة السعى . فكان سعى بين طريقين استباق . إن كان فى غاية البطل .

فمن كان فى أرقى مقامات اقرب كان من الحتم أن يكون ما أعد له من
الجنة أنسمى مما أعد لمن دونه فى مقامات القرب ، ومن ثم كان عرض الجنة
الأعلى للمؤمنين المسحورين السبع والأرض ، بينما الجنة الأعلى لمن دونهم
بكثير « الذين آمنوا » عرضها كعرض السموات والأرض ، « الجمع
فى السموات فى آية آل عمران المناظر للأفراد فى آية الحديد عطى
رحمة حبة المهيمن رحابة معجز عن إدراك مداها كل معاينس الجسر ، ذلك
اسموا أيضا على قدرات كاف التشبيه التى جاءت فى حبة الذين آمنوا »
سورة الحديد •

من خلال النظر الى طبيعة من نتحدث عنهم الآية المسندة فى سماء
سوره أهل الكمال والمقى « آل عمران » ، وهو سياق بصف المؤمنين بأسم
الذين ينفقون فى السراء والضراء (ي - ١٣٤) وسياق آية الحديد يركز
على الأمر بالإيمان ، والإتيان مما استخلفهم الله فيه (الحديد - ٧) والحث
على أفعال الله قرص ما حسنا فى أسلوب استفهام دفعهم بالإبارة
والإيابة (ي - ١١) •

من خلال النظر للمأمل فى كل هذا ندرك شيئا من سرائر الجمال
الأسلوبى للمعارقات التعبيرية بين الآيتين ، ولعل وقفنا المأمل فى قرص
نعالي (مثل الجنة التى وعد الملقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم
وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا ، وعقبى الكافرين ، النار » (الرعد - ٣٥) •

نؤكد ما ذهبت اليه على أن النظرة العجلى تلحظ أن صدر الآية هذا
يتحدث عن مثل وصف الجنة التى وعد الملقون ، وبعد وصفها أشار إليها
فائلا « تلك عقبى الذين اتقوا » وظاهر هذا يقضى ما ذهبت اليه من
المعارقات التعبيرية فى ضوء المفارقة بين المستوى الروحى بين أفراد الأمة
الاسلامية ، ذلك أن طاهر الآية يدل على أن الجنة الملقين هى حبة الذين
اتقوا بدليل الإشارة « تلك عقبى الذين اتقوا » •

سعدان المظهر المدبره ولا سيما قوله (وعد) و (عفى) مرد ذلك :

المفرد الأول يعطى أن هذه الجنة الموصوفة هي ما وعد بها المهملون
كذلك ليست هي عفى الله من وسمي حرائهم وأعلى مستوى يمكن أن يصل
إليه من كانوا في المستوى الأعلى من مقام المقسوى . الذين كان القرآن
هدى لهم ، وكانوا هم المفلحون .

هذه الجنة الموصوفة هنا هي أول درجات الجنة بالمسلمة للمتقين ،
ولكنها ليست آخر ارتقاء لهم في قبوضات العطاء ، لكن الذين اتقوا أي
الذين مانوا وهم في المستوى الأدنى من مقام التقوى هذه الجنة الموصوفة
هي أعلى منزلة يصل إليها رائدهم وسيدهم ، ومن كان مشارفا للموازيح في
المستوى الأعلى من مقام التقوى ، فالجنة الموصوفة هنا تمثل أدنى درجات
المسلم المتقين وأعلى درجاته الذين اتقوا . وذلك يؤكد صدق ما دعيت إليه

•• تذكير المؤنث ••

إذا كان القرآن الكريم قد حا ناسان غربي من كما صرح في عبر
موطن (يوسف / ٣ . المحل / ١٠٣ . الشعراء / ١٩٥) فإنه من الحلى أنه
لم يحضن نظم لكل القواعد التي كان تمسح على موائها العرب أسلوبهم
والتي صاغها النحاة في قواعد وقوانين ، وإنما نراه في غير موطن يخرج على
بعض هذه القواعد لأسرار حمائية وغيرها وذلك محال مسيح خصب أرجو
الحق لعائني على أفراد بدراسة جادة مستفيضة .

المهم هنا أنني أريد إلى تقديم صورته من صور التعبير القرآني أنني لم
نحر وفق ما يذهب إليه قواعد النظم في لغة العرب ، ونحاول أن نتدبرها
و نضو مقامات القرب ، هذه الصورة هي تذكر صفة المؤنث في قوله تعالى

• ادعوا ربكم بصرا وخفه انه لا يحب المعدن • ولا يهدى سبورا في الارض بعد اصلاحها وادعوه خوفا وطمعا ان رحمت الله قريب من المحسنين • (الاعراف - ٥٥ - ٥٦) •

• ما الحكمة في تذكر قرب • مع أنه صده • حريما • عن التواضع وهو الرحمة مع ان الخير الذي هذا سبانه يجب فيه التواضع • يقول هبة كريمة • وطريقه • ولا يقال كرم ولا طريق • • على حد نص جمال الدين ابن هشام • (١) •

مثل هذا يسمى بالحمل على المعنى الذي هو ضرب من ضروب ما يسمى بسحابة العربية (٢) • وعلى تسمية ذات فقه ومعرفته • سافرها • ان شاء الله تعالى • بدارسة مفصلة •

هذه الآية قد لفت عناية مشكورة من العلماء • فكيف حوّن الرسائل واقبحت فيها المأطرات على نحو ما نراه من المناظرة التي حدثت بين ابن مالك وعصره محمد الدين الرازي (٣) • بعدد آراء العلماء كما قلت • فربما جمال الدين ابن هشام يذكر فيها أربعة عشر وجها • منها قوي وضعف • وكل مأخوذ من قوله • وشروك على حد تعديده (٤) • فذكر الآراء واعترض عليها كلها خلا الوحة السادسة • فقد ذكره ولم يعترض عليه • وهذا الوحة السادسة هو :

-
- (١) الانبياء والخطائر في النحو للسيوطي ج ٢ ص ١٤٧
 (٢) الجامع الكبير لاس الأبر ص ١٠٧ • تحقيق مصطفى جواد - ط ١٣٧٥ بغداد •
 (٣) الانبياء والخطائر في النحو للسيوطي ج ٢ ص ١٢٦ - ١٤٧
 (٤) المرجع السابق ج ٣ ص ١٤٨

« ان فعلا بمعنى فاعل » قد شبهه بفعيل بمعنى مفعول ، فيمنع من البناء في المؤنث كما قد يشبهون فعلا بمعنى مفعول بفعيل بمعنى فاعل فيلحقونه بالبناء ، فالأول كقوله سبحانه « قال من يحيى العظام وهى رميم » ومنه « ان رحمة الله قريب من المحسنين » والثانى كقولهم خصلة ذهبية ، وصفة حميدة ، حملا على قولهم قبيحة وجميلة (١) .

هذا الوجه الذى عده ابن هشام سادسا ، ولم يعترض عليه ، وجعله جزء من وجه ملحق من وجوه ارتضاء فى آخر رسالته (٢) ، هذا الوجه قد عده ابن مالك أول الوجوه الستة التى ذكرها فى الآية (٣) عبر ان العلامة ومجد الدين الروذراوى قد فند هذا الوجه بما هو مبسوط فى محله ، وكذلك فعل العلامة ابن القيم الجوزية ، حيث أورد عليه ثلاثة اعتراضات كل منها قوى صناعة (٤) .

وعلى فرض النسليم الجدلى بصحته صناعة ، فإنه ما يزال تحت طائل الاعتراض البلاغى القائل : ما الحال الذى اقضى اجراء « فعيل » بمعنى « فاعل » مجرى « فعيل » بمعنى « مفعول » فى عدم لحاق البناء به ؛ الحق اننى نظرت فى الوجوه التى ابداهها العلامة ومجد الدين الروذراوى ، والعلامة ابن مالك وجمال الدين بن هشام ، وقد جمعها جميعا الامام السبوطى (٥) والوجوه التى جمعها ابن قيم الجوزية (٦) ونظرت فى

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ١٤٩

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ١٥٣

(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ١٣٨

(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ١٤٣ ، بدائع الفوائد لابن القيم ج ٣ ص ٢٠

(٥) الاشباه والظواهر ج ٣ ص ١٣٦ - ١٥٣

(٦) بدائع الفوائد ج ٣ ص ١٨ - ٣٥ ، التفسير القيم ص ٢٥٩

كل وجه ، وما اثير من اعتراضات حوله واحدا واحدا ، فرأيت أن أقرب الوجوه الى السياق الذى تحدثت فيه الآية هو الوجه الثانى من الوجوه التى أوردها ابن مالك فى الآية ، وعده ابن هشام الوجه الثانى عشر ، وعده ابن قيم الجوزية المسلك الثانى فى الآية •

هذا الوجه هو : « انه من باب تأول المؤنث بمذكر موافق فى المعنى كقول الشاعر :

أرى رجلا منهم أسيفا كأنما يضم الى كشحيه كفا مخضبا

فتأول كفا ، وهو مؤنث بعضو ، فذكر صفته لذلك ، وكذلك الرحمة متأول بالاحسان ، فذكر خبرها ، وتأولها بالاحسان أولى من تأول الكف بالعضو لوجهين :

أحدهما : أن الرحمة قائم بالراحم ، والاحسان بر المرحوم ومعنى البر فى القرب اظهر منه الرحمة •

الثانى : أن ملاحظة الاحسان فى الرحمة بالقرب من المحسنين مقابلة الاحسان الذى تضمنه ذكر المحسنين ، فاعتبارها يزيد المعنى ، فصحت الأولوية ، ومن تأول المؤنث بمذكر ما أنشده الفراء •

وقائع فى مضر تسعة وفى وائل كانت العاشرة

فتأول الوقائع بأيام الحرب ، فلذلك ذكر العدد الجارى عليها ، فقال تسعة واذا جاز تأول المذكر بمؤنث فى قول من قال جاءته كتابى ، فاحتقرها ، أى صحيفتى ، وفى قول الشاعر •

يا أيها الراكب المزجى مطيته سائل بنى أسد ما هذه الصوت

أى الصيحة ، مع ما فى ذلك من حمل أصل على فرع فلأن يجوز تاويل مؤنث بمذكر لكونه حمل فرع على أصل أحق وأولى ، ١ •

اعترض على هذا الوجه المجد الروذراوى اعتراضات فندها الامام ابن قيم الجوزية بما يغنى عن بسطه (٢) والحق أن هذا الوجه كما قال ابن القيم وجيه :

وحسنه عندى كبلاغى أغدقه عليه اعتلاقه بالسياق الذى تحدثت فيه الآية ، وملاحظة صفة من تتحدث عنه الآية « المحسنين » •

بمعنى أن قوله تعالى « إن رحمت الله قريب من المحسنين » جاء فاصلة لآية تنهى عن الفساد فى الأرض وتأمر بدعاء الله من مقام الجمع بين الخوف والطمع « وادعوه خوفا وطمعا » والجمع بينهما هو الطريق المستقيم الى مقام الاحسان ، كما فسر المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فيما سبق من حديث ذكرناه ، ذلك أن الخوف فيه ابلاغ فى الاقرار بهيمنة الحق وقهره ، واعتراف بضعف الخلق وفى الطمع ابلاغ فى الاقرار بالعجز عن الوفاء بحقه تعالى « واستقصار للنفس عن استحقاق الفضل مع الاعتراف بفيض العطاء الربانى الأقدس ، فالجمع بين مقام الخوف والطمع ثمرة مشاهدة هيمنة جلال الألوهية ، ومشاهدة فيض جمال الربوبية ، فمن ذاقها غرق فى سبحات الله (٣) ، فكان من المحسنين ، فكان شديداً القرب منه تصديقا لقوله تعالى فى حديثه القدسى « ••• وان تقرب الى بشبر تقربت اليه ذراعا ، وان تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا وان اتانى يمشى أتيته هرولة » متفق عليه واللفظ للبخارى (٤) فأشار فى الآية

(١) الاشباه والنظائر ج ٣ ص ١٣٩ وبدائع الفوائد ج ٣ ص ٢١

(٢) بدائع الفوائد ج ٣ ص ٢٢ والتفسير القيم ص ٢٦٢

(٣) سبحات الله (بضم تين) انواره • ينظر القاموس المحيط •

(٤) صحيح البخارى : كتاب التوحيد - باب ويحذركم الله نفسه ،

وصحيح مسلم : كتاب الذكر والدعاء باب فضل الذكر •

بتذكير الصفة الى شدة قرب رحمة من المحسنين ، لأن التذكير دليل القوة والتأنيث دليل الضعف ، والقرآن الكريم في غير موطن أشار بالتذكير الى قوة ما جعله مذكرا ، على نحو ما تراه في قوله تعالى في قصة ثمود : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جائمين » (هود - ٦٧) فذكر الفعل (أخذ) وأنه في قصة مدين في السورة ذاتها حيث يقول : « وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائمين » (هود - ٩٤) ، فكان التذكير للفعل أخذ في قصة ثمود متناسبا مع طبيعة قوم ثمود الذين أخبر الحق عن قوتهم ، وأنهم جاؤوا الصخر بالواد ، وأنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين وفارحين ، ومن كان كذلك ناسبه ان يكون أخذهم قويا ، فأشار اليه بتذكير الفعل معهم على الرغم من أن الفاعل غير حقيقي التأنيث وقضيل بينه وبين الفعل بفواصل ، وأشار بتأنيث الفعل في قصة مدين تجاوبا مع ضعف مدين في منظور ثمود وكذلك ترى دلالة التذكير على القوة في قوله تعالى « وما يدريك لعل الساعة قريب » (الشورى - ١٧) .

ويصور هذا القرب قوله صلى الله عليه وسلم : « بعثت انا والساعة كهاتين » وضم السبابة والوسطى .

متفق عليه واللفظ مسلم (١)

فالتذكير المشير الى القرب البالغ في الآية يتجارب مع المقام الذي انتهى اليه المحسنون وهو مقام « ان تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وعلى قدر الارتقاء في مقامات انطاعة يكون القرب « هل جزاء الاحسان الا الاحسان » (الرحمن - ٦٠) .

(١) صحيح البخارى : كتاب الرقاق - باب قوله بعثت انا والساعة كهاتين ، وصحيح مسلم : كتاب الفتن - باب قرب الساعة .

خاتمة الطواف :

وبعد فهذه دراسة تبرز محاولة للتدبر فى آيات الذكر الحكيم على نهج محمد الملاح فكان وعمر المرتقى ، فان عطاءات القرآن الكريم لا تنال بفيض من علوم اللغة وحدها ، ولا بمعارف الأرض فحسب ، وإنما هى أحوج مع هذا كله الى خير زاد ، وخير زاد التقوى ، وتلك منزلة نتقطع دولها نياط ونياط ، أنى لمثل الوصول اليها ؟

ومن ثم فانك واجد فى محاولتى هذه خطاها أكثر من صوابها لعدة اعتبارات أرجو أن يعنى الحق على اجتيازها .

من هذه الاعتبارات ان هذه الدراسة لا تزعم لنفسها انها قامت على الاستقصاء لاسلوب القرآن الكريم استقصاء كاملا فيما تناولته من ظواهر تعبيرية فيه - خلا اسلوب النداء - ومن ثم فانها لا تستطيع أن تزعم - مجرد زعم - ان ما ذهبت اليه من آراء هى نتائج علمية قائمة على الرصد الاكمل والموازنة والتحليل الشامل الكامل فى ضوء المعيار الذى تناولت عليه هذه الدراسة .

ولعله كان من الخير لهذه الدراسة الا تخرج الآن ، غير أنى أثرت اخرجها . وهى ما تزال فى مهادها عسى أن تحتك بمقول وقلوب خاصة الخاصة من العلماء ، فيكشفون بفقهم زيفها وبهرجها الذى غشى على كاتبها ، أو يدلون على مخابىء الحسن فيها - ان يكن فيها ذلك - فيمنحه كاتبها نعاء واكتمالا .

• وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الأثم والعصيان ،
(المائدة - ٢) •

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والمسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

دكتور محمود توفيق محمد سعد
المدرس بقسم البلاغة والنقد بالكلية